إن الحضارة الأوروبية في الحقيقة لم تخلق بيدها خلقا كل هذه القوالب المعروفة في أدابها وفنونها، ولا كل هذه النظريات الشائعة في فلسفتها وعلمها، فإن كثيرا من هذه القوالب والنظريات مأخوذة عن الشرق في حالتها الأولية، ولكن الأوروبيين زادوا عليه، وأضافوا إليه، وأخرجوه ممهرا بإضائتهم، وانطلقا بشخصياتهم. وهذا في الواقع عمل كل حضارة من الحضارات ولا تستثنى من ذلك الحضارة الإسلامية نفسها في عصورها الذهارة، فما هي إلا جمع أفكار وثقات وحضارات أمم مختلفة، صبها الإسلام في قالب، وجعل منها لونا خاصا.

فالثقافة الشرقية إذن، لا يمكن أن تكون اليوم بمثابة عن ثقافة أوروبا ولا أن تتمضى عليها عن هذه الثروة الهائلة. فنتمد أديانا إذن غير مقتديين بسلسلة التقاليد أو العادات أو العقائد، فتأخذ كل شيء، ونهضم كل شيء، ثم نخرج على روحنا المدين، كل في بلده، فنسخت الأفكار الثقافية المسربة، إذ لا ريب أن كل بلد من بلد الشرق فيه مجاب الفكر مفعمة متأثرة لستخرج بعد. فالغرب على نشاطه الفكري والنهج الذاهبي لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز الشرك مثل الشرقي، إذ لا بد أن تكون مبناه قد ارتكبته بحولاج مذيعة، من أسرار طبيعة لا تكشفها غير طبيعة الشرقي وغرائزه، وتجارب حكمته المترامية في أعماق نفسه، على مدى آلاف السنين.

فإذا تم لنا ذلك، فإننا نستطيع أن نطبخ كل تلك الثروة وكل تلك المادة بطباقنا الخاص، وعلى نحو ما حدث عندما اختلفت طبائع الدول الشمالية في أوروبا عن طبائع الدول الجنوبية، فقترعت عن الثقافة الواحدة ثقافان، هما الثقافة القلتين، والثقافة الأنجلو سكسونية، ثقافتان لا تختلفان من حيث مقدار الثروة الذهنية، وإنما تختلفان في الطابع والمزاج والروح. فإذا كان في مقدمنا نحن أن نضيف إلى هاتين الثقافتين العظميتين ثقافة ثالثة، لا تختلف عنها في بلغ ثروتها ومكانتها، وإنما تختلفها فقط في الطابع والطبيعة والروح، ثقافة ثالثة حادة نامية جميلة، عليها ختام شخصيتهما الشرقية، يراها العرب، فكأنه يرى شيئا جديدا مستائلا، قد أخرج لهم من صدر عبقري جديدا، فإننا يكون قد أتينا رسالتنا إلى هذا العالم، وأمكننا أن نساري الفكر البشري في طوره، وأن نسهم بعضنا ومواهبنا في بنائه العظيم، وأن ننظر أخيرا بإحراز هاتين الثقافتين البديعتين الفائقتين، ذلك الاحترام الذي ننظر به إحداهما إلى الأخرى، ويسترد الشرق عدنا.

 توفيق الحكم، لغة فلسفة النحو، الشركة العالمية للكتب، بيروت، 1996، ص 108-110.